الفصل الأول
عرض المرحلة الثالثة من غزوة أُحُد (بعد المعركة)
المبحث الأول
انتهاء المعركة وانسحاب الجيش المكي

التمثيل بالقتلى:

«وبعد أن قرر أبو سفيان إنهاء القتال أخذ المشركون في التهيؤ للرحيل وانصرفوا إلى ساحة المعركة يتفقدون قتلاهم، كما انشغل فريق بإرواء ظمئهم الجاهلي وإشفاء حقدهم الوثني بالتمثيل بشهداء المسلمين وتشويه جثثهم تشويهًا فظيعًا.

حيث بقروا البطون وانتزعوا الأحشاء منها بأيديهم، وجدعوا الأنوف وقطعوا الآذان، بل لقد قطعوا الأعضاء الحساسة التناسلية من بعض الشهداء» [سمط النجوم العوالي ٢/ ٨٧]». [غزوة أُحد لباشميل ١٧١].

التمثيل بجثة سيد الشهداء حمزة ﷺ:

«وكان سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ﷺ أكثر الشهداء تعرضًا لوحشية التشويه والتمثيل، وبربرية الانتقام؛ لأنه ﷺ كان عنده أكثر من ثأر لسادات قريش، فقد قتل يوم بدر بالاشتراك مع ابن أخيه علي بن أبي طالب ﷺ سيدي قريش عتبة بن ربيعة وشيبة والوليد ابني عتبة ـ أخا هند بنت عتبة ـ وكلهم من بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

ولهذا كانت هند بنت عتبة من أشد الناس غيظًا وحنقًا على حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وكانت قد حضرت مع زوجها القائد العام أبي سفيان فيمن حضر من نساء قادة مكة لتحريض الجيش على قتال المسلمين.

وكانت قد علمت هذه المرأة العنيدة أن جبير بن مطعم قد وعد عبده وحشيًّا العتق إن هو قتل حمزة ﷺ، فكانت كلما مرت بهذا العبد الحبشي تشجعه ليفي بوعده لسيده جبير، وتوعده المكافأة السخية إن هو تمكن من قتل حمزة ﷺ». [غزوة أُحد لباشميل ١٧١-١٧٢].

كبد حمزة ﷺ تقضمها هند:

«فلما انتهت المعركة جاء العبد وحشي إلى هند بنت عتبة بعد اغتيال سيد الشهداء حمزة ﷺ وقال لها: ماذا لي إن قتلت قاتل أبيك؟ فقالت: سلبي.

فأكد لها بأنه قد اغتال حمزة ﷺ.

فأعطته ثيابها وحليها، ووعدته أنها إذا وصلت مكة ستدفع له مكافأة نقدية ذهبية كبيرة، ثم قادها العبد القاتل المغتال، إلى حيث صُرع أسد الله وأسد رسوله، فعمدت في وحشية وقسوة إلى بطن حمزة ﷺ

فبقرتها ثم انتزعت كبده، وأخذت تتشفى بالنظر إليها والدم ينساب من بين أصابعها التي أرعشها الغيظ الجاهلي والحنق الوثني، وكانت هند نذرت في الجاهلية إن قدرت على حمزة ﷺ لتأكلن من كبده؛ ولذلك قضمتها وأخذت تلوكها لتبتلعها ولكنها لم تستسغها فلفظتها. [السيرة الحلبية ٢/ ٣٧].

ويقول بعض المؤرخين: إن هندًا انتزعت أحشاء الشهيد حمزة ﷺ وجعلت منها إكليلًا، وقطعت أذنيه وجدعت أنفه، ثم جعلت ذلك كالسوار في يديها وقلائد في عنقها واستمرت كذلك حتى قدمت مكة. [السيرة الحلبية ٢/ ٣٧].

وهذا عمل يمثل أحط أنواع الوحشية والهمجية والقسوة، ولا يستبعد صدوره من امرأة موتورة كانت تدين دين الجاهلية.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ:... فَنَظَرُوا فَإِذَا حَمْزَةُ ﷺ قَدْ بُقِرَ بَطْنُهُ، وَأَخَذَتْ هِنْدُ كَبِدَهُ فَلَاكَتْهَا، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَأْكُلَهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَأَكَلَتْ مِنْهُ شَيْئًا؟**» قَالُوا: لَا، قَالَ: «**مَا كَانَ اللهُ لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حَمْزَةَ النَّارَ**»، فَوَضَعَ رَسُولُ الله ﷺ، حَمْزَةَ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، وَجِيءَ بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَوُضِعَ إِلَى جَنْبِهِ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَرُفِعَ الْأَنْصَارِيُّ، وَتُرِكَ حَمْزَةُ، ثُمَّ جِيءَ بِآخَرَ فَوَضَعَهُ إِلَى جَنْبِ حَمْزَةَ فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ رُفِعَ، وَتُرِكَ حَمْزَةُ حَتَّى صَلَّى عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ صَلَاةً.

[مسند أحمد ٧/ ٤١٨-٤١٩ رقم ٤٤١٤، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَوَقَعَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ، كَمَا حَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ، وَالنِّسْوَةُ اللَّاتِي مَعَهَا، يُمَثِّلْنَ بِالقَتْلَى مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ يَجْدَعْنَ الآذَانَ وَالأُنُفَ حَتَّى اتَّخَذَتْ هِنْدُ مِنْ آذَانِ الرِّجَالِ وَآنُفِهِمْ خَدَمًا (خلاخيل) وَقَلَائِدَ، وَأَعْطَتْ خَدَمَهَا وَقَلَائِدَهَا وَقِرَطَتَهَا وَحْشِيًّا، غُلَامَ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، وَبَقَرَتْ (شقَّت) عَنْ كَبِدِ حَمْزَةَ، فَلَاكَتْهَا (مضغتها)، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُسِيغَهَا (تبتلعها)، فَلَفَظَتْهَا (طرحتها)، ثُمَّ عَلَتْ عَلَى صَخْرَةٍ مُشْرِفَةٍ فَصَرَخَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا فَقَالَتْ:

نَحْنُ جَزَيْنَاكُمْ بِيَوْمِ بَدْرِ ... وَالحَرْبُ بَعْدَ الحَرْبِ ذَاتِ سُعْرِ (١)

مَا كَانَ عَنْ عُتْبَةَ لِي مِنْ صَبْرِ ... وَلَا أَخِي وَعَمِّهِ وَبَكْرِي (٢)

شَفَيْتُ نَفْسِي وَقَضَيْتُ نَذْرِي ... شَفَيْتَ وَحْشِيُّ غَلِيلَ صَدْرِي (٣)

مَا كَانَ عَنْ عُتْبَةَ لِي مِنْ صَبْرِ ... حَتَّى تَرِمَّ أَعْظُمِي فِي قَبْرِي (٤)

---

(١) **السعر** (بضمتين وسكن للشعر): الالتهاب.

(٢) عتبة بن ربيعة هو والد هند، قتله حمزة ﷺ برازًا يوم بدر، وبكرها تعني به ابنها حنظلة بن أبي سفيان الذي قتله المسلمون يوم بدر.

(٣) **الغليل**: العطش، أو حرارة الجوف.

(٤) **ترم**: تبلى وتفتت.

فَأَجَابَتْهَا هِنْدُ بِنْتُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ المطَّلِبِ [١]، فَقَالَتْ:

خَزِيتِ فِي بَدْرٍ وَبَعْدَ بَدْرِ ... يَا بِنْتَ وَقَّاعٍ عَظِيمِ الكُفْرِ [٢]
صَبَّحَكِ اللهُ غَدَاةَ الفَجْرِ ... مَلهَاشِمَيَّيْنِ الطِّوَالِ الزُّهْرِ [٣]
بِكُلِّ قَطَّاعٍ حُسَامٍ يَفْرِي ... حَمْزَةُ لَيْثِيٌّ وَعَلِيٌّ صَقْرِي [٤]
إِذْ رَامَ شَيْبٌ وَأَبُوكِ غَدْرِي ... فَخَضَّبَا مِنْهُ ضَوَاحِي النَّحْرِ [٥]
وَنَذْرُكِ السُّوءَ فَشَرُّ نَذْرِ

[السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٩١-٩٢].

ويحك اكتمها عني:

وبينما كان بعض الرجال من المشركين يمثلون بالشهداء، كان القائد العام أبو سفيان يتجول في ميدان المعركة ومعه كبار قادة الجيش المكي، لمعرفة عدد القتلى من الفريقين والتعرف عليهم.

وبينما هو يتجول كذلك إذ مر بجثمان سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وكان أبو سفيان ـ كزوجه ـ موتورًا منه، فوضع زج الرمح في شدقه وأخذ يضربه.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ كَانَ الحُلَيْسُ بْنُ زَبَّانٍ أَخُو بَنُو الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ، وَهُوَ يَوْمئِذٍ سَيِّدُ الأَحَابِيْشِ، قَدْ مَرَّ بِأَبِي سُفْيَانَ وَهُوَ يَضْرِبُ فِي شَدْقِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ ﷺ بِزُجِّ الرُّمْحِ، وَيَقُولُ: **ذُقْ عُقَقُ** (أي عاق)، فَقَالَ الحُلَيْسُ: **يَا بَنِي كِنَانَةَ هَذَا سَيِّدُ قُرَيْشٍ** (يعني أبا سفيان) **يَصْنَعُ بِابْنِ عَمِّهِ** (وذلك أن أبا سفيان يلتقي بحمزة في عبد مناف الذي هو جد بني أمية وبني هاشم) **مَا تَرَوْنَ لَحَمًا؟ (أي: ميتًا لا يقدر على الانتصار)**، فَقَالَ: **وَيْحَكَ أُكْتُمْهَا عَنِّي، فَإِنَّهَا كَانَتْ زَلَّةً**. [السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٩٣].

وكان التمثيل بالقتلى وتشويه جثث الأعداء حتى في الجاهلية أمرًا يعيبه العرب ويستهجنونه.

الفخر الجاهلي والعزة الإسلامية:

وبعد أن شفى المشركون غليلهم بالتمثيل بجثث شهداء الإسلام، وعرفوا مبلغ خسارة الفريقين من القتلى قرروا الانصراف، فأصدر القائد أبو سفيان أوامره بذلك إلى الجيش فتجهز.

---

(١) هي هند بنت أُثاثة بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف، شاعرة قرشية اشتهرت في الجاهلية، أسلمت بعد غزوة بدر الكبرى، ولها أخبار في يوم خيبر، وقد تزوجت أبا جندب، وولدت له ابنته ريطة، وهند هذه هي أخت مسطح الذي جاء ذكره في حديث الإفك، توفيت هند هذه سنة ١٠هـ. غزوة أحد لباشميل ص ١٧٣.

(٢) **الوقاع**: الكثير الوقوع في الدنيا.

(٣) **ملهاشميين**، أراد: من الهاشميين، فحذف النون من (من) لالتقاء الساكنين، ولا يجوز ذلك إلا في (من) وحدها لكثرة استعمالها، والزهر: البيض، الواحد: أزهر.

(٤) **الحسام**: السيف القاطع. **يفري**: يقطع.

(٥) **شيب**: أرادت شيبة، فرخمته في غير النداء. **ضواحي النحر**: ما ظهر من الصدر.

وكان أبو سفيان حتى أن وضعت الحرب أوزارها على غير علم تام بحقيقة مصير النبي ﷺ وكبار هيئة أركان حربه بعد الانتكاسة، وكان في شك من خبر مقتل النبي ﷺ الذي أشاعه ابن قمئة بين جند مكة.

وقبل أن ينصرف أبو سفيان بجيش مكة من أُحد صعد إلى جبل قريب من المسلمين وأشرف منه ليفتخر على المسلمين، ويبدي لهم اغتباطه بما أصابهم في المعركة.

عَنْ البَرَاءِ ﷺ قَالَ: «... وَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: **أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ؟** [ثَلاَثَ مَرَّاتٍ]، فَقَالَ ﷺ: «**لَا تُجِيبُوهُ**» [فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ]، فَقَالَ: **أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟** [ثَلاَثَ مَرَّاتٍ]، قَالَ ﷺ: «**لَا تُجِيبُوهُ**»، فَقَالَ: **أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟** [ثَلاَثَ مَرَّاتٍ]، [ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ] فَقَالَ: **إِنَّ [أَمَّا] هَؤُلَاءِ [فَقَدْ] قُتِلُوا، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لَأَجَابُوا،** فَلَمْ يَمْلِكْ [فَمَا مَلَكَ] عُمَرُ ﷺ نَفْسَهُ، فَقَالَ: **كَذَبْتَ [وَاللهِ] يَا عَدُوَّ اللهِ! [إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ]، أَبْقَى اللهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ [وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوؤُكَ]**، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **اعْلُ هُبَلُ**، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَجِيبُوهُ**» [«**أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ**»]، قَالُوا: [**يَا رَسُولَ اللهِ] مَا نَقُولُ؟** قَالَ ﷺ: «**قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**»، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: [**إِنَّ] لَنَا العُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ،** فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَجِيبُوهُ**»[«**أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ**»]، قَالُوا: [**يَا رَسُولَ اللهِ] مَا نَقُولُ؟** قَالَ ﷺ: «**قُولُوا: اللهُ مَوْلاَنَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ**»، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالحَرْبُ سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ [إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي القَوْمِ] مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي**».

[البخاري في المغازي (٤٠٤٣)، وفي الجهاد والسير (٣٠٣٩)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٦٢)، ومسند أحمد ٣٠/ ٥٥٤-٥٥٥ رقم ١٨٥٩٣].

وعَنْ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «... قَالَ: فَمَكَثَ سَاعَةً فَإِذَا أَبُو سُفْيَانَ يَصِيحُ فِي أَسْفَلِ الجَبَلِ: **اعْلُ هُبَلُ! مَرَّتَيْنِ ـ يَعْنِي آلِهَتَهُ ـ أَيْنَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ الخَطَّابِ؟** فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: **يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا أُجِيبُهُ؟** قَالَ: **بَلَى،** فَلَـمَّا قَالَ: **اعْلُ هُبَلُ،** قَالَ عُمَرُ ﷺ: **اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ،** فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِنَّهُ قَدْ أَنْعَمَتْ عَيْنُهَا** (١)**، فَعَادِ عَنْهَا أَوْ فَعَالِ عَنْهَا** (تجاف عنها ولا تذكرها بسوء، يعني آلهتهم)، فَقَالَ: **أَيْنَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ الخَطَّابِ؟** فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: **هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهَذَا أَبُو بَكْرٍ، وَهَا أَنَا ذَا عُمَرُ،** فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، الأَيَّامُ دُوَلٌ، وَإِنَّ الحَرْبَ سِجَالٌ** (أي: نوب، والسجل: الدلو.. فكأنه شبه المتحاربين بالمستقيين، يستقي هذا دلوًا، وهذا دلوًا) **[وَحَنْظَلَةُ بِحَنْظَلَةَ** (يعني حنظلة بن أبي عامر بحنظلة بن أبي سفيان)]، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: **لَا سَوَاءً، قَتْلَانَا فِي الجَنَّةِ، وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ،** قَالَ: **إِنَّكُمْ لَتَزْعُمُونَ**

(١) قال ابن الأثر: «كَانَ الرَّجُلُ مِنْ قُرَيْشٍ إِذَا أرادَ ابْتِدَاء أَمْرٍ عَمَد إِلَى سَهْمَين فكتَب عَلَى أَحَدِهما: نَعَم، وَعَلَى الآخَر: لَا، ثُمَّ يتقَدَّم إِلَى الصنَّم ويُجِيل سِهامَه، فإِنْ خرَج سَهْم نَعَم أقْدَم، وَإِنْ خرَج سهْم لاَ امْتَنَع، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ لـمَّا أرادَ الخُروج إِلَى أُحُدٍ استَفْتَى هبلَ، فخرَج لَهُ سَهْمُ الإنْعام، فَذَلِكَ قولُه لِعُمر: «انْعَمَتْ، فعَالِ عَنْهَا». النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٢٩٤.

ذَلِكَ! لَقَدْ خِبْنَا إِذَنْ وَخَسِرْنَا، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَمَا إِنَّكُمْ سَوْفَ تَجِدُونَ فِي قَتْلاكُمْ [عَيْثًا (الإفساد)] ومُثْلًا، وَلَمْ يَكُنْ ذَاكَ عَنْ رَأْيِ سَرَاتِنَا، قَالَ: ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ حَمِيَّةُ الجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَانَ ذَاكَ، وَلَمْ نَكْرَهْهُ.

[مسند أحمد ٤/ ٣٦٨ رقم ٢٦٠٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٢٤ كتاب تفسير القرآن رقم ٣١٦٣، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، والمعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٣٠١ رقم ١٠٧٣١، والمغازي للواقدي ١/ ٢٩٦-٢٩٧].

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ:... فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: اعْلُ هُبَلُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ»، فَقَالُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا عُزَّى، وَلَا عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قُولُوا: اللهُ مَوْلَانَا، وَالْكَافِرُونَ لَا مَوْلَى لَهُمْ»، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ يَوْمٌ لَنَا، وَيَوْمٌ عَلَيْنَا، وَيَوْمٌ نُسَاءُ، وَيَوْمٌ نُسَرُّ، حَنْظَلَةُ بِحَنْظَلَةَ، وَفُلَانٌ بِفُلَانٍ، وَفُلَانٌ بِفُلَانٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا سَوَاءً، أَمَّا قَتْلَانَا فَأَحْيَاءٌ يُرْزَقُونَ، وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ يُعَذَّبُونَ»، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: قَدْ كَانَتْ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ لَعَنْ غَيْرِ مَلَإٍ مِنَّا، مَا أَمَرْتُ وَلَا نَهَيْتُ، وَلَا أَحْبَبْتُ، وَلَا كَرِهْتُ، وَلَا سَاءَنِي، وَلَا سَرَّنِي.

[مسند أحمد ٧/ ٤١٨-٤١٩ رقم ٤٤١٤، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه].

«ثُمَّ قَالَ أبو سفيان: قُمْ إِلَيَّ يَا بْنَ الخَطَّابِ أُكَلِّمْكَ، فَقَامَ عُمَرُ ﷺ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَنْشُدُكَ بِدِينِكَ، هَلْ قَتَلنَا مُحَمَّدًا؟ قَالَ عُمَرُ ﷺ: اللَّهُمَّ لا، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ كَلامَكَ الآنَ، قَالَ: أَنْتَ عِنْدِي أَصْدَقُ مِنْ ابْنِ قَمِيئَةَ ـ وَكَانَ ابْنُ قَمِيئَةَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ قَتَلَ النَّبِيَّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ، وَرَفَعَ صَوْتَهُ: إِنَّكُمْ وَاجِدُونَ فِي قَتْلاكُمْ مَثْلًا، أَلا إِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ عَنْ رَأْيِ سَرَاتِنَا، ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ حَمِيَّةُ الجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: أَمَّا إِذْ كَانَ ذَلِكَ فَلَمْ نَكْرَهْهُ، ثُمَّ نَادَى: أَلا إِنَّ مَوْعِدَكُمْ بَدْرٌ الصَّفْرَاءُ عَلَى رَأْسِ الحَوْلِ! فَوَقَفَ عُمَرُ ﷺ وَقْفَةً يَنْتَظِرُ مَا يَقُولُ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قُلْ نَعَمْ»، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: نَعَمْ!».

[المغازي للواقدي ١/ ٢٩٦-٢٩٧، والسيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٩٣-٩٤].

وكان هذا التواعد آخر حديث يوجهه أبو سفيان إلى المسلمين من على رأس الجبل بعد معركة أُحد.

الجيش المكي ينسحب:

وبعد هذا مباشرة هبط أبو سفيان من الجبل وانسحب بجيشه إلى مكة.

وبهذا اختتم آخر فصل من فصول معركة أُحد الرهيبة الدامية التي امتحن الله فيها المسلمين وميزت شدائدها ونكباتها الطيب من الخبيث: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

مراقبة تحركات العدو:

وبعد أن تحرك جيش مكة وأخذ في الانسحاب من نقطة أُحد انتدب الرسول ﷺ سعد بن أبي وقاص ﷺ [1] ليقوم بعملية الاستكشاف، وأمره بأن يتعقب جيش مكة ويراقب حركاته وإلى أين يتجه.

أيتجه إلى المدينة التي لا تبعد عن مكان المعركة أكثر من ميلين لمهاجمتها أم يتجه إلى مكة؟

وقد أكد الرسول ﷺ كقائد خبير مطلع لهيئة أركان حربه، بأن المشركين، إن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهم يريدون مهاجمة المدينة، وإن جنبوا الخيل وركبوا الجمال، فهم عازمون على الانسحاب إلى مكة رأسًا.

ثم أبلغ جيشه بأنه مصمم على منازلة الجيش المكي، والحيلولة بينه وبين احتلال المدينة إن هو اعتزم ذلك». [غزوة أُحد لباشميل ١٨١].

قال الواقدي: «ثُمَّ انْصَرَفَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَأَخَذُوا فِي الرَّحِيلِ، فَأَشْفَقَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ، فَاشْتَدَّتْ شَفَقَتُهُمْ مِنْ أَنْ يُغِيرَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمَدِينَةِ فَتَهْلِكَ الذَّرَارِيُّ وَالنِّسَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ: **«ائْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ إِنْ رَكِبُوا الإِبِلَ وَجَنَّبُوا الْخَيْلَ فَهُوَ الظَّعْنُ، وَإِنْ رَكِبُوا الْخَيْلَ وَجَنَّبُوا الإِبِلَ فَهِيَ الْغَارَةُ عَلَى الْمَدِينَةِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ سَارُوا إِلَيْهَا لأَسِيرَنَّ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ لأُنَاجِزَنَّهُمْ»**.

قَالَ سَعْدٌ ﷺ: فَوَجَّهْتُ أَسْعَى، وَأَرْصَدْتُ فِي نَفْسِي إِنْ أَفْزَعَنِي شَيْءٌ رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنَا أَسْعَى، فَبَدَأْتُ بِالسَّعْيِ حِينَ ابْتَدَأْتُ، فَخَرَجْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالعَقِيقِ، وَكُنْتُ حَيْثُ أَرَاهُمْ وَأَتَأَمَّلُهُمْ، فَإِذَا هُمْ قَدْ رَكِبُوا الإِبِلَ وَجَنَّبُوا الخَيْلَ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ الظَّعْنُ إِلَى بِلادِهِمْ، فَوَقَفُوا وَقْفَةً بِالعَقِيقِ وَتَشَاوَرُوا فِي دُخُولِ المَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ: **قَدْ أَصَبْتُمْ القَوْمَ فَانْصَرِفُوا، فَلا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ كَالُّونَ وَلَكُمْ الظَّفَرُ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْرُونَ مَا يَغْشَاكُمْ، قَدْ وَلَّيْتُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَالله مَا تَبِعُوكُمْ وَالظَّفَرُ لَهُمْ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«نَهَاهُمْ صَفْوَانُ»**.

فَلَـمَّا رَآهُمْ سَعْدٌ ﷺ عَلَى تِلكَ الحَالِ مُنْطَلِقِينَ قَدْ دَخَلُوا فِي الْمُكَيْمِنِ (تصغير مكمن، ويُقال: مكيمن الجماء، وهو الجبل المتصل بجماء تضارع ببطن العقيق) رَجَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ كَالْمُنْكَسِرِ، فَقَالَ: **وَجَّهَ**

---

(١) في السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٩٣ أن الذي انتدبه رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب ﷺ، وقال الصالحي في سبل الهدى والرشاد ٤/ ٣٢٥: «وقال عروة، ومحمد بن عمر (الواقدي)، وابن عائذ: سعد بن أبي وقاص»، والحديث سيأتي برواية أخرى رواها البزار وأوردها الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢١٩ كتاب المناقب باب جامع في مناقب سعد ﷺ رقم ١٤٨٥٨، وقال الهيثمي: رواه البزار وإسناده حسن، وهو ما اختاره ورجحه الدكتور الخالدي في كتابه عن سعد ﷺ ص ١٤٩-١٥٢.

القَوْمُ يَا رَسُولَ الله إِلَى مَكَّةَ، امْتَطَوْا الإِبِلَ، وَجَنَّبُوا الخَيْلَ، فَقَالَ: «**مَا تَقُولُ؟**»، فَقُلْتُ ذَلِكَ، ثُمَّ خَلا بِي، فَقَالَ: «**حَقًّا مَا تَقُولُ؟**»، قُلْتُ: **نَعَمْ يَا رَسُولَ الله**، فَقَالَ: «**مَا لِي رَأَيْتُكَ مُنْكَسِرًا؟**»، قَالَ: فَقُلْتُ: **كَرِهْتُ أَنْ آتِيَ المُسْلِمِينَ فَرِحًا بِقُفُولِهِمْ إِلَى بِلادِهِمْ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ سَعْدًا لـمُجَرِّبٌ**».

[المغازي للواقدي ١/ ٢٩٧-٢٩٩].

وعن سعدٍ ﷺ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَسْتَخْبِرُ لَهُ خَبَرَ قَوْمٍ، فَذَهَبْتُ وَأَنَا أَسْعَى حَتَّى صِرْتُ إِلَى القَوْمِ، ثُمَّ جِئْتُ وَأَنَا أَمْشِي عَلَى هَيْئَتِي [هَيْنَتِي] حَتَّى صِرْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «**ذَهَبْتَ شَدِيدًا، ثُمَّ جِئْتَ عَلَى هَيْئَتِكَ [هَيْنَتِكَ]؟**» ـ أَوْ كَمَا قَالَ ـ فَقُلْتُ: **يَا رَسُولَ الله، إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَسْعَى فَيَظُنَّ بِي القَوْمُ أَنِّي قَدْ فَرَقْتُ (خِفْتُ)**، فَقَالَ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ سَعْدًا لـمُجَرِّبٌ**». [مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ٢١٩ كتاب المناقب (١٤٨٥٨)، وقال الهيثمي: رواه البزار [مسند البزار ٣/ ٣١٢ رقم ١١٠٥]، وإسناده حسن].